

خصائص القيادة الحقة

الكاتب: أحمد صبيح محمد اللامي^١

المشرف: السيد حسين العمادي^٢

قبول: ١٤٣٧/٨/٥

استلام: ١٤٣٦/٩/١٣

الخلاصة

لقد ثبت على مر العصور أنّ من مقومات نجاح الأمم وجود القيادة الواعية تضمن عدم انحرافها عن جادة الصواب. من جملة الأسباب التي دعت رسول الله ﷺ للتفكير بمنصب الإمامة و المرجعية بعد وفاته هو خطر زوال المبادئ الإسلامية الأصلية بوفاته دون تعيين من يتولى منصب قيادة الأمة بعده. إن تقديم علي رضي الله عنه راعيا لهذه الأمة من قبل رسول الله ﷺ كان لضرورة وجود النموذج الأمثل والقُدوة السامية التي تجسد العدل الإلهي كما كان رسول الله الكريم ﷺ.

فحادثته الغدير إذن درس للأجيال لإعادة النظر في خصائص القيادة الواعية والراعية لهذه الأمة. هاهنا بعض خصائص القيادة الحقة كما يلي:

- ١- البعد عن الحسد والحقد؛
- ٢- الزهد في الدنيا؛
- ٣- الورع عن محارم الله؛
- ٤- الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء؛
- ٥- ان يسعى لربط الأمة بالله تعالى؛
- ٦- عدم اتباعه للهوى.

الكلمات الرئيسية: الأمة الإسلامية، القيادة الواعية، الإمامة، المرجعية، القُدوة السامية

المقدمة

في تصريح للمستشرق البريطاني مونتجومري وات في جريدة التايمز اللندنية قائلا:
إذا وجد القائد المناسب الذي يتكلم الكلام المناسب عن الإسلام فإن من الممكن لهذا الدين أن يظهر كأحدى القوى السياسية العظمى في العالم مرة أخرى.

هذا التصريح أفتتح به مقالتي؛ لأنه لم يأت عن فراغ، فقد ثبت للغرب بعد دراستهم لواقع الأمة الإسلامية على مر العصور أنّ من مقومات نجاح الأمة الإسلامية وجود القيادة الواعية التي تجسدت بأعلى مراتبها بالأئمة الأطهار رضي الله عنهم فتولّى النبي الأكرم ﷺ قيادة الأمة، وكان نقطة التحوّل الكبرى في تاريخها بعد أن كانت العصبية الجاهلية مستحكمة في ظل غياب سلطة سياسية موحدة، وفقدان نظام الحكم كما كان عليه الحال في الإمبراطوريات التي سيطرت على تخوم شبه الجزيرة، وأقامت ممالك تابعة لها.

١- طالب في مرحلة الإجازة فرع علوم القرآن والحديث، allamy10@yahoo.com

٢- المشرف على الإنتاج العلمي في جامعة المصطفى ﷺ المفتوحة، hossinemadi@yahoo.com

إنما كان الحكم قبلياً، ولم يكن هناك ما يوحد هذه القبائل، فكانت الحروب والغارات متواصلة، ولا يستطيع أحد أن يزعم أنه كانت هناك أمة عربية موحدة في أهدافها في شبه الجزيرة العربية في هذه الفترة، ولم تكن تبدو ملامح وحدة منتظرة في الأفق. للمانع الموجود في طبيعة العرب كما ذكر ابن خلدون: فهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض؛ للغلظة والأنفة وبعدها الهمة والمنافسة في الرياسة.^١

الأسباب التي دعت النبي ﷺ للتفكير بمنصب الخلافة

بعد التغيير الكبير الذي حققته قيادة النبي محمد ﷺ في واقع الأمة كانت هناك جملة من الأسباب التي دعت للتفكير بمنصب الإمامة والمرجعية بعد وفاته - للحفاظ على تلك المكتسبات - منها كون الأمة الإسلامية حديثة النشأة، وتعودها على الارتباط بنبيها ورسولها، وقائدها، ومرجعها محمد ﷺ فهو الرسول وهو القائد، وهو المرجع، وهو القاضي، وهو المعيل، وهو الحاكم بنفس الوقت، وإنَّ هناك أعداد ساحقة منها لا تعرف من الإسلام إلا اسمه ولا تجيد إلا التلفظ بالشهادتين، بمعنى أنهم يجهلون الإسلام ويجهلون بيان القرآن، وقد قضى الأمر، وبعد نصر الله والفتح، اختار الرسول ما عند الله فما هي إلا سنة وبعض السنة حتى تغيب شمس الإسلام بغياب محمد ﷺ ويرحل البدر التام، ويشغر منصب القيادة والإمامة والمرجعية بموت النبي ﷺ. كل هذا دفعه للتفكير بمنصب الإمامة والمرجعية بعد وفاته، وهو يرى المستقبل بالوضوح الذي يرى فيه الحاضر والماضي.

لذلك ركز النبي ﷺ تركيزاً خاصاً على منصب قيادته الأمة ومرجعيتها بعد وفاته. فكانت ولاية أمر الأمة مسألة في غاية الأهمية كما عبر العلامة الطباطبائي في تفسيره قائلاً:

ولاية أمر الأمة مما لا غنى للدين عنه ظاهر لا ستر عليه، وكيف يسوغ لمتوهم أن يتوهم أن الدين الذي يقرر بسعته لعامة البشر في عامة الأعصار والأقطار جميع ما يتعلق بالمعارف الأصلية، والأصول الخلقية، والأحكام الفرعية العامة لجميع حركات الإنسان وسكناته، فرادى ومجتمعين على خلاف جميع القوانين العامة لا يحتاج إلى حافظ يحفظه حق الحفظ؟ أو أن الأمة الإسلامية والمجتمع الديني مستثنى من بين جميع المجتمعات الإنسانية مستغنية عن والٍ يتولى أمرها ومدبر يديرها ومجر يجريها؟ وبأي عذر يمكن أن يعتذر إلى الباحث عن سيرة النبي الاجتماعية؟ حيث يرى أنه كان إذا خرج إلى غزوة خلف مكانه رجلاً يدير رحي المجتمع، وقد خلف علياً مكانه على المدينة عند مسيره إلى تبوك فقال: يا رسول الله أتخلفني على النساء والصبيان؟ فقال: أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي.

وكان ينصب الولاية للحكام في ما بيد المسلمين من البلاد كمكة والطائف واليمن وغيرها، ويؤمّر رجالاً على السرايا والجيوش التي يبعثها إلى الأطراف، وأي فرق بين زمان حياته وما بعد مماته دون أن الحاجة إلى ذلك بعد غيبته بالموت أشد، والضرورة إليه أمس ثم أمس.^٢

١- ابن خلدون، ٢٠٠٥، ص. ٧٥.

٢- الطباطبائي، ١٤١٧، ج ٦، ص. ٤٨.

لذا فمن المستحيل أن تفهم حادثة الغدير كحادثة مرحلية انتهت بالبيعة للإمام علي عليه السلام باعتبار أن مهمتها كانت تعيين الإمام علي وليا وخليفة وفق النص الالهي والنبوي، فليس للبيب ومنصف الحق في هذا الفهم إطلاقاً؛ لأن التأمل في هذه الحادثة التاريخية والدارس لحيثياتها يُستوقف عندها كثيراً فقوله تعالى:

«يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ»^١.

قد ذكرت لها جملة من الخصوصيات، منها: إن لهذه الآية نفساً خاصاً يميزها عما قبلها وعما بعدها من آيات، إنها تتوجه بالخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وحده وتبين له واجبة، فهي تبدأ بمخاطبة الرسول: يا أيها الرسول، وتأمرة بكل جلاء ووضوح أن بلغ ما أنزل إليك من ربك. ثم لكي يكون التوكيد أشد وأقوى تحذره وتقول: وإن لم تفعل فما بلغت رسالتك. ثم تطمئن الآية الرسول صلى الله عليه وآله - وكان أمراً يقلقه- وتطلب منه أن يهدي من روعه وأن لا يخشى الناس، فيقول له: والله يعصمك من الناس. وفي ختام الآية إنذار وتهديد بمعاقبة الذين ينكرون هذه الرسالة الخاصة ويكفرون بها عناداً، فتقول: إن الله لا يهدي القوم الكافرين.

أسلوب هذه الآية، ولحنها الخاص، وتكرر توكيداتها، وكذلك ابتداءها بمخاطبة الرسول يا أيها الرسول التي لم ترد في القرآن الكريم سوى مرتين، وتهديده بأن عدم تبليغ هذه الرسالة الخاصة إنما هو تقصير - وهذا لم يرد إلا في هذه الآية وحدها - كل ذلك يدل على أن الكلام يدور حول أمر مهم جداً بحيث أن عدم تبليغه يعتبر عدم تبليغ للرسالة كلها. لقد كان لهذا الأمر معارضون أشداء إلى درجة أن الرسول صلى الله عليه وآله كان قلقاً لخشيته من أن تلك المعارضة قد تثير بعض المشاكل بوجه الإسلام والمسلمين، ولهذا يطمئنه الله تعالى من هذه الناحية.^٢

لذا يستنتج من هذا كله مصيرية هذا الأمر ومدى فاعليته في الحفاظ على رسالة الإسلام، إذن فحادثة الغدير هي منهج إلهي فرضه الباري تعالى، وبلغه نبيه الكريم هذا المنهج يتمثل بضرورة وجود قيادة واعية في كل مرحلة زمنية - ما دامت الحياة - تأخذ على عاتقها حفظ كيان الأمة الإسلامية من الزيغ والانحراف وتدرأ عنها كل الشبهات والأخطار، فهي مسؤولة جسيمة، وإن تقديم علي عليه السلام راعياً لهذه الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله هو لضرورة وجود النموذج الأمثل والقدوة السامية التي تجسد العدل الإلهي كما كان رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وكما كان علي عليه السلام.

حادثة الغدير إذن درس للأجيال لإعادة النظر في خصائص القيادة الواعية والراعية لهذه الأمة، فهي تدفعنا إلى التأمل في كتاب الله وسيرة الأئمة الأطهار عليهم السلام للبحث عن خصائص القيادة الحقة والجديرة بقيادة الأمة والأخذ بها إلى بر الأمان. فلنقف معاً على بعض تلك الخصائص إحياءً لحادثة الغدير الخالدة.

١- البعد عن الحسد والحقد

فعن الإمام الباقر عليه السلام:

«لا يكون العبد عالماً حتى لا يكون حاسداً لمن فوقه ولا محقراً لمن دونه»^٣.

١- المائدة: ٦٧.

٢- مكارم الشيرازي، ١٤٢٦، ج ٤، ص ٨٣.

٣- ابن شعبة الحراني، ١٣٩٤، ص ٢٩٤.

فإن صفة الحسد هي من أعظم الآفات النفسية، فهي التي تلقي الناس في البلاء، و تجر لهم الخطوب، كما أن العالم لا يكون عالماً، فيما إذا احتقر من دونه، فإنه ينم عن عدم انتفاعه بالعلم، الذي يدعو إلى تكريم الناس، و مقابلتهم بالأخلاق الرفيعة، فإن الرسول ﷺ إنما بعث ليتمم مكارم الأخلاق، وإذا تجرد العالم من هذه الظاهرة، فقد شدّ عن سنن الرسول وأخلاقه.

٢- الزهد في الدنيا

الإمام الباقر ﷺ وقد سأله رجل فأجابه، فقال الرجل: إن الفقهاء لا يقولون هذا:

- «يا ويحك وهل رأيت فقيها قط؟ إنّ الفقيه حقّ الفقيه: الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، المتمسك بسنة النبي ﷺ»^١.
 - «إذا رأيتم القارئ- أي العالم- يحب الأغنياء فهو صاحب دنيا وإذا رأيتموه يلزم السلطان من غير ضرورة فهو لص»^٢.
- إن مصاحبة العالم للأغنياء، هو الطمع في أموالهم، وما يستفيده منهم لمنافع خاصة، وهذا بلا شك يسقط من كرامته، ويضعف من أخلاقه. فالعلماء الشرفاء يرجون الله في علمهم، ولا يرجون غيره، وأما ملازمة السلطان من غير حاجة، ولا ضرورة، فإنه ينم عن بعد ذلك العالم عن الواقعية وعن الكرامة الإنسانية، وأنه لص على حد تعبير الإمام ﷺ.
- أما العلماء الشرفاء، والذين يبغون وجه الله عز وجل في علمهم، ويعملون على إصلاح مجتمعهم وإرشاد الناس إلى الخير والصلاح، ولا يبغون من وراء ذلك لا جزاءً، ولا شكوراً سوى رضى الله جل وعلا، وسعادة الناس. هؤلاء طلب إلينا الإمام ﷺ مجالستهم.

٣- الورع عن محارم الله

الإمام علي ﷺ:

«الورع شيمة الفقيه»^٣.

وعنه ﷺ في عهده إلى محمد بن أبي بكر حين ولاه مصر:

«إن أفضل الفقه الورع في دين الله والعمل بطاعته فعليك بالتقوى في سر أمرك وعلانية»^٤.

٤- الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء

فعن الإمام الرضا ﷺ عن آبائه ﷺ:

رفع إلى رسول الله ﷺ قوم في بعض غزواته فقال: من القوم؟

قالوا: مؤمنون يا رسول الله.

قال: وما بلغ من إيمانكم؟

قالوا: الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بالقضاء.

فقال رسول الله ﷺ: «حلماء علماء كادوا من الفقه أن يكونوا أنبياء»^٥.

١- الريشهري، ١٤١٦، ج٣، ص. ٢٤٥٧.

٢- العاملي، ١٩٨٦، ج١، ص. ٦٥٦.

٣- آمدي، ١٤١٠، ح٩٩٥.

٤- ابن أبي الحديد، ١٤١٥، ج٦، ص. ٧١.

٥- الريشهري، ١٤١٦، ج٣، ص. ٢٤٥٥.

٥- أن يسعى لربط الأمة بالله تعالى

قال رسول الله ﷺ:

ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه؟

قالوا: بلى.

قال: «من لم يقنط الناس من رحمة الله - سبحانه - ولم يؤمنهم من مكر الله - عز وجل - ولم يؤيسهم من روح الل - عز وجل - ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه»^١.

٦- عدم اتباعه للهوى

في قوله تعالى:

«يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ»^٢.

فالحاكم الذي يتبع هوى النفس، إنما يفرط بمصالح وحقوق الناس لأجل مطامعه، ولهذا السبب فإن حكومته تكون مضطربة ومصيرها الانهيار والزوال. ومن الممكن أن يكون (هوى النفس) معاني واسعة، تضم في نفس الوقت هوى نفس الإنسان، وهوى النفس عند كل الناس، وهكذا، فإن القرآن يحكم بطلان المناهج الوضعية التي تستند على أفكار عامة الناس في الحكم؛ لأن نتيجة الاثنين هو الضلال والانحراف عن سبيل الله وصراف الحق.

واليوم نشاهد الآثار السيئة لهذا النوع من التفكير في عالم يسمى بالعالم المتطور والحديث، فأحيانا نرى أشنع وأقبح الأعمال تأخذ شكلا قانونيا نتيجة الأخذ بآراء الناس، ورائحة الفضيحة في هذا العالم قد أزكمت الأنوف، والقلم يجعل عن ذكرها. صحيح أن أسس الحكومة مستندة على الجماهير، وأن مشاركة الجميع فيها يحفظ أسسها، إلا أن هذا لا يعني أن رأي الأكثرية هو معيار الحق والباطل في كل شيء وفي كل مكان. فالحكومة يجب أن يكون إطارها الحق، ولتطبيق الحق لا بأس بالاستعانة بطاقات أفراد المجتمع^٣.

هذه بعض الخصائص التي لا بد أن تتحلى بها القيادة التي يكتب لها الامتداد الشرعي للأئمة الاطهار عليهم السلام والمتصفح في كلماتهم يجد مدرسة متكاملة تبين من هم أهل لذلك وعلى الأمة أن تكون واعية وقادرة على التمييز بين من هو حامل لتلك الخصائص من غيره، وإلا فإنها لن تكون أرضا صالحة لاحتضان دولة صاحب الزمان عليه السلام الذي هو منتظر لوعينا وإدراكنا لهذه الحقيقة - خصائص القيادة الحقة - قبل أن نكون له منتظرين، وأسأل الله تعالى أن نكون جميعا ممن عرفوا الحق حقا وتبعوه والباطل باطلا فاجتنبوه، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبيه الكريم وآله الغر الميامين، وسلم تسليما كثيرا.

١- م.ن، ج٦، ص. ٢٤٥٦.

٢- ص: ٢٦.

٣- مكارم الشيرازي، ١٤٢٦، ج١٤، ص. ٤٩٥.

الخاتمة

إنَّ من مقومات نجاح الأمة الإسلامية وجود القيادة الواعية، في ذلك الجو القبلي المملوء بالاضطراب وعدم الأمن وكثرة الحروب والغارات المتواصلة فيما بينهم. ومع بقاء الرواسب الجاهلية عند المسلمين أراد الرسول ﷺ أن يديم الرسالة بوجود الشخصية المثالية واللائقة للمسلمين ولا يتحقق ذلك إلا بشخص الإمام علي ﷺ لذا قرر أن يجعله خليفته من بعده ويوعز منصب الإمامة والمرجعية له؛ لأنه أولى برعاية الأمة في تحقيق رسالة الإسلام التي تتواجد فيه القدوة والمجسد الحقيقي للعدل الإلهي.

لذا لا تفهم حادثة الغدير كحادثة مرحلية انتهت بتعيين الإمام علي ﷺ وليا وخليفة وفق النص الالهي:

«يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ»^١

وللنص النبوي بولايته، فهي حادثة تأخذ على عاتقها الحفاظ على رسالة الإسلام وحفظ كيان الأمة الإسلامية من الزيغ والانحراف؛ لأن شخصية الإمام تمثلت فيها الصفات والخصائص التي فقدت عند غيره من الصحابة، فقد تحققت في شخصيته بعده عن الحسد والحقد، والزهد في الدنيا والورع عن محارم الله تعالى، وكان مثالا في الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء، وكان رائداً في ربط الأمة بالله تعالى لأنه لم يقط الأمة من رحمة الله تعالى، وكان علياً ﷺ بعيداً كل البعد عن الهوى واتباعه، بل كان شديداً في أمر الله تعالى ولا تأخذه فيه لومة لائم.

المصادر

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- آمدي، عبدالواحد بن محمد، (١٤١٠)، غرر الحكم و درر الكلم، قم: دارالكتاب الإسلامي.
- ٣- ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله، (١٤١٥)، شرح نهج البلاغة، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
- ٤- ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد، (٢٠٠٥)، مقدمة ابن خلدون، بيروت: دارالكتاب العربي.
- ٥- ابن شعبة الحراني، ابو محمد الحسن، (١٣٩٤)، تحف العقول عن آل الرسول ﷺ، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
- ٦- الطباطبائي، السيد محمد حسين، (١٤١٧)، الميزان في تفسير القرآن، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
- ٧- العاملي، محسن الأمين، (١٩٨٦)، أعيان الشيعة، بيروت: دار التعارف.
- ٨- محمدي الريشهري، محمد، (١٤١٦)، ميزان الحكمة، قم: دارالحديث.
- ٩- مكارم الشيرازي، ناصر، (١٤٢٦)، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، قم: مدرسة الإمام علي بن ابي طالب ﷺ.